يوصلها الى الطريق العام، للحيلولة دون الناطور، الذي كان ينتظرها عند منعطف زقاق بيته، والاحتكاك بأم سعد، تكون أم سعد قد أبلغت الراوي بكل ما جرى، أي بكل ما أعاد قصّه علينا، وما أن يصلا الى الطريق العام، حتى تكون إعادة تذكرها لهذه الوقائع المؤلمة قد فجّرت في نفسها، فكرة مضيئة تشي بأنها ـ أي أم سعد ـ كانت تتأمل في كل كلمة تقولها، وتعيدها الى داخلها لتفكر فيها من جديد، فهي تقول للراوي: «إنني أصاب بالارتجاف حين أرى ذلك الناطور يتعقبني من قرية الى أخرى، يريدون ضربنا ببعضنا، نحن المشحّرين كي يربحوا ليرتين... وهم لا يهمهم... أن يدفعوا واحدة منا لتقطع رزق الاخرى، وأنظر ماذا يفعل ذلك الناطور! ذلك الناطور الكريه! انه يستجيب لهم، ويظل طول النهار يكرج على البسكليت ليوفر لهم ليرتين!»[١٤٨].

عبر التجربة، وعبر ادراكها العميق للتضاد الحادّ بين واقعها القائم، وواقع الآخرين القائم، تدرك أم سعد أن وعي الفقراء (المشحرين) القائم ينطوي على ممكنات كوامن، يمكن تفجيرها، لتحويل هذا الوعي من وعي قائم، راهن، الى وعي ممكن، وعي يكون مدخلاً أصيلاً، وضرورياً، لتحويل الواقع القائم الى واقع ممكن... تقول للراوي، في نهاية اللوحة: «لو أنا والناطور والحرمة قلنا للخواجا...»[١٤٩]، وتترك أم سعد الكلمة الاخيرة في هذه العبارة للفقراء كي يقولوها... أو يترك غسان للفقراء ان ينطقوا بها، أو يخطوها في المساحة المخصصة لها في بياض الصفحة.

والحق أن تطور وعي أم سعد، لا يتأتى من تجربة واحدة، مفردة، بل إنه ينبع من تراكم تجارب؛ ماضية وحاضرة، إنها تعيد قراءة الماضي في ضوء وعيها الحاضر، القائم الآن، وهي في فطرتها وصفاء رؤياها، تستلهم دروس الماضي لتقرأ الحاضر في ضوء من مغزاها، وتتداخل في هذه القراءة أبعاد شتى، فيكون للوطني انعكاسه على الاجتماعي، ويكون للأخير أثره على الاول، ولا تجد أم سعد عبر اسئلتها التي تحمل فحوى الاجابات أية امكانية لفصل هذا عن ذاك، فهي في اللوحة الخامسة «الذين هربوا والذين تقدموا» تخرج مع نساء المخيم لتنظيف الطريق ـ طريق المطار ـ من شظايا القنابل التي ألقتها الطائرات الاسرائيلية، وتتساءل عن أولئك الذين تركوا سياراتهم في عرض الطريق وهربوا، وبعد ان تحاول والنسوة ازاحة السيارات ويفشلن في ذلك لثقلها، يخفن أن يراهن أحد أصحابها فيتهمهن بالسرقة، فيتوقفن عن المحاولة، ومع إعادة سرد هذه التجربة للراوي يقول الاخير لأم سعد: «غلطانة يا أم سعد... أنت تقومين بعمل عظيم...»[١٥٠]. فتجيب أم سعد، ببساطة عميقة: «ـ أعرف، ولكنني يا ابن العم لا أستطيع ان أثق برجل ترك سيارته في عرض الطريق، تسدّ الدرب، وهرب...»[١٥١]. إن أصحاب البيوت المترفة هم أصحاب السيارات تلك، ومثلما تنظف أم سعد وأمثالها بيوتهم وهم نائمون، كذلك ينظفن الطريق، وهم هاربون، فالبيوت أمكنة والطرق أمكنة، وفي كل مكان ترتسم علامات التضاد، وتولد الاسئلة، ويولد الحاضر أسئلة تعيد محاكمة الماضي، ففي اللوحة السادسة «الرسالة التي وصلت بعد ٣٢ سنة»، تنبثق من ذاكرة أم سعد ذكرى أحداث وأناس ظلوا غائبين عن ذاكرتها عشرين سنة، فهي تتلقى رسالة من إبنها سعد، وحين تعرف ان سعداً يطلب اليها ـ في الرسالة ـ أن تذهب الى أهل البيت، جيرانهم في المخيم، وأن تثنيهم عن الاتصال بعبدالمولى؛ النائب العربي في البرلمان الاسرائيلي، للتوسط بشأن ليث الذي وقع في الأسر، تنبثق في ذاكرتها ذكرى ثورة ١٩٣٦، ويرتسم في مخيلتها مشهد ينطوي على تضاد مكاني دال على المستويين الاجتماعي (الطبقي) والسياسي (الوطني):

في ساحة قرية تقع الى الشرق من «الغبسية» كان عبدالمولى، زعيم حمولته والرجل ذو الارزاق الذي يملك زيتوناً وتبغاً، يقف على المنصة، و«يصعد الى الطاولة، ويبدأ بالحكي»[١٥٢]، بينما كان